الكتاب: دراسة مفاهيمية قرآنية

عبد الرحمن حللي*

تقديم

نسير في هذا البحث الذي يُعنى بدراسة أحد المفاهيم الرئيسة في القرآن الكريم (مفهوم الكتاب) على النهج نفسه الذي سلكناه في بحث سابق خصصناه لدراسة مفهومي الأسماء والكلمات.[1] والقصد من مثل هذه الدراسة الكشفُ عن القاعدة الأساسية لشبكة العلاقات المفاهيمية التي ينطوي عليها القرآن الحكيم والتي تنبثق منها رؤيته الكلية للوجود والكون، وتتشعب منها القيم الروحية والخلقية والنظم القانونية والاجتماعية الإسلامية في فروعها كما في أصولها.

مفهوم الكتاب

1. الكتاب في اللغة

الكتاب مصدر، يقال كتب الكتاب يكتبه كِتبة وكتاباً وكتابةً وكَتْباً، وكتبه خطه، ثم سمي به المكتوب. فالكتاب اسم لما كتب مجموعاً، والكتاب ما كتب فيه،

---

* دكتوراه في العلوم الإسلامية من جامعة الزيتونة، عضو الهيئة التدريسية في كلية الشريعة بجامعة دمشق.

[1] حللي، عبد الرحمن، "الأسماء والكلمات: دراسة مفاهيمية قرآنية"، مجلة **التجديد**، العدد 19 (1427هـ/2006م)، ص11-34.

والصحيفة والدواة. والأصل في الكتابة النظم بالخط، لكن يستعار كل واحد للآخر، ولهذا سمي كلام الله – وإن لم يُكتب – كتابا. والمكاتبة التكاتب وأن يكاتب العبد على نفسه بثمنه فإذا أداه عتق، والكاتب عند العرب العالم.

والكتاب الفرض والحكم والقدر والعزم، ووجه ذلك أن الشيء يُراد ثم يقال ثم يكتب، فالإرادة مبدأ والكتابة منتهى. ثم يُعبَّر عن المراد الذي هو مبدأ إذا أريد توكيده بالكتابة التي هي المنتهى. ومن المجاز كُتب عليه كذا: قُضِيَ عليه، وكَتَب الله الأجل، وكتب على عباده الطاعة وعلى نفسه الرحمة، وهذا كتاب الله: قدره.

والكُتبة (بالضم) السير يخرز به، والجمع كتب، وكتب النعل أو السقاء خرزه، وأكتبت القربة شددتها، والكَتيبة ما جُمِع فلم ينتشر، والكَتيبة القطعة العظيمة من الجيش والجمع الكتائب، وكتَّب الكتائب هيأها كتيبة كتيبة، وتكتبت الخيل أي تجمعت، وتكتَّب الرجل إذا تحزم وجمع عليه ثيابه، وتكتبوا تجمعوا.

فكل ما ذكر في الكتاب من معان قريب بعضه من بعض، وهو الجمع بين شيئين أو أكثر، ومن ذلك سميت الكتيبة لأنها تكتبت فاجتمعت. ومنه قيل كتبت الكتاب لأنه يجمع حرفاً إلى حرف، وتكتبوا تجمعوا.[1]

فأصل الكتابة الجمع، وسميت الكتابة لجمعها الحروف، فهي خطوط موضوعة مجتمعة تدل على المعنى المقصود، فاشتُقَّ الكتاب لذلك، ويسمى المكتوب كتاباً مجازا.[2]

---

[1] ابن منظور، محمد بن علي، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، ط1، د.ت)، ج1، ص698 وما بعدها؛ الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط** (د. ط، د.ت)، ص1672؛ الرازي، محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، تحقيق محمود خاطر (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1995)، ص234؛ الزمخشري، محمود، **أساس البلاغة** (بيروت: دار صادر، ط1، 1992)، ص535؛ الأصفهاني، الحسين بن محمد الشهير بالراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق صفوان عدنان داوودي (دمشق: دار القلم، ط3، 2002)، ص699؛ ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث**، تحقيق طاهر الزاوي (بيروت: المكتبة العلمية، 1979)، ج4، ص147.

[2] انظر: الزركشي، بدر الدين محمد، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار المعرفة، 1990)، ج1، ص276–277.

فالكتاب بناء على ما ذكر هو المجموع من الحروف والكلمات الدالة على مقصود كاتبها، ويستلزم ذلك معنى لازماً له وهو **الخط الذي تجمع من خلاله الحروف والكلمات**. ولمعنى الجمع والخط المستخدم في التعبير عن المعنى استعير لفظُ الكتاب للتعبير عن المتحصل من الكتابة مادياً (**الصحف التي خُط عليها**)، أو معنوياً (**المعنى الذي تفيده الكلمات المجتمعة سواء كانت مخطوطة أم لم تكن**). فإذا أُطلِقَ لفظُ الكتاب تبادر إلى الذهن أحد المعنيين، الكتاب ببعده المعنوي وهو لازم للكتاب المادي لأنه يتحصل منه، أو يقصد بالكتاب عند إطلاقه الصحف المادية التي خُطَّت عليها الكلماتُ بغض النظر عما تفيده من معنى.

ونظراً للوظائف التي تؤديها الكتابة والكتاب، فقد أُطلق الكتاب مجازاً على معان متحصلة منها كالقضاء والحكم والفرض والرسالة؛ لأن تلك المعاني يتم تبليغها عبر الكتاب المخطوط عليه، وقد تعدى المعنى المجازي للكتاب إلى صيغة الفعل واشتقاقاتها فأصبحت تعبر عن معنى الجمع بشكل عام أو الشيء المجموع، كما ورد في الأمثلة التي نقلناها.

هذه المعاني اللغوية للكتاب استعيرت لمعنى ديني خاص، فأُطلق الكتاب على أمور ذات صلة بالعلاقة بين الله والخلق، فعبر به عما تلقاه الأنبياء من الله، وعن علم الله وحكمه وفرائضه وقدره وغيرها من المعاني التي لها حضورها في مختلف السياقات الدينية عبر التاريخ، لكنا سنتناول مفردة الكتاب في سياقها القرآني حصراً لنبحث عما تحمله من دلالات وما يربط بين مختلف سياقات ورودها من معاني.

2. الكتاب في القرآن الكريم

إن إطلالة عامة على تكرار جذر "كتب" وتواتره في القرآن، وما ذكرته كتب

الوجوه والنظائر من معان للكتاب في القرآن[1] تجعل الناظر فيها يشعر للوهلة الأولى أن لا رابط بينها وأنه من العبث البحث عن علاقة بينها تقود إلى معنى مشترك. فقد ورد لفظ الكتاب 261 مرة من بين مفردات جذر "كتب" في القرآن الذي ورد 319 مرة، وقد توزع ورود لفظ الكتاب في القرآن على 58 سورة، 138 مرة ضمن 129 آية في 43 سورة مكية، بينما ورد 123 مرة ضمن 108 آية في 15 سورة مدنية.

وسنحاول تصنيف هذه الآيات ضمن مجموعات حسب ما يفيده سياقها ونسجل ما قد تفيده من دلالات، مع تتبع ما جاء حولها من أقوال العلماء لنبحث عن الخيط الذي يقودنا إلى دلالة مفهوم الكتاب في القرآن وصلته بالمعنى اللغوي. وبوسعنا أن نقسم المعنيّ بالكتاب في الآيات ضمن ستة محاور أساسية تنطوي على تفصيلات جزئية على النحو الآتي:

- الاستعمال اللغوي للكتاب في القرآن.
- كتاب الله المنزل على الرسل.
- الكتاب في تصور المشركين ومعاصري الرسول.
- كتاب أعمال الإنسان.
- كتاب الله/علمه المحيط.
- السياقات الإشكالية للكتاب.

1. الاستعمال اللغوي لمفردة الكتاب في القرآن

وردت استعمالات عديدة للفظ الكتاب بمعناه اللغوي سواء بمعناه الحقيقي أو

---

[1] ذكروا من معاني الكتاب ما يزيد على عشر معان: اللوح المحفوظ، أعمال بني آدم، الأجل، الوقت، الرزق، الفرض، الحساب، العلم، العدة، القرآن، التوراة، الإنجيل.. (انظر: الدامغاني، الحسين بن محمد، **إصلاح الوجوه والنظائر**، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1970)، ص400–401، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م)، ص526.

المجازي، فذكر كتاب سليمان إلى ملكة سبأ،[1] والكتاب بمعنى المصدر ويعني مكاتبة العبد على حريته،[2] وشبَّه القرآن مصير السماء ضمن تحولات الكون التي ستؤول إليها بالكتاب الذي يتم طيه،[3] ومن المعاني المجازية للكتاب استعماله بمعنى الزمن المحدد مسبقاً، فاستعمل في مدة العدة وأجل الموت،[4] كما استعمل الكتاب بمعنى الفرض والواجب،[5] وهو معنى مجازي لاستعمال الكتاب واستعمال صيغة الفعل في هذا المعنى أكثر، وهذا ما بينه المفسرون في الحديث عن تلك الآيات، وربما فسر البعض بعضها بمعنى اصطلاحي مستعيناً بدلالة لغوية أو نحوية كتقدير مضاف أو غيره.[6]

---

[1] النمل: 28-29.

[2] النور: 33.

[3] ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 104).

[4] ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ البقرة: 235 ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ (آل عمران: 145)، ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (الحجر: 4).

[5] ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء 103)

[6] ففي قوله ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَه﴾ فسروه بالحد والقدر أو تقدير (فرض الكتاب أجله) فالكتاب على هذا التأويل بمعنى القرآن. انظر: الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** (بيروت: دار الفكر، 1405هـ)، ج1، ص527، البيضاوي، أبو عبد الله محمد، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** (تفسير البيضاوي)، تحقيق عبد القادر العشا (بيروت: دار الفكر، 1996)، ج1، ص532، القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني (القاهرة: دار الشعب، ط2، 1372هـ)، ج3، ص192-193؛ الأصفهاني، الحسين بن محمد الشهير بالراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق صفوان عدنان داوودي (دمشق: دار القلم، ط3، 2002)، تفسير سورة البقرة (رسالة الدكتوراه محققة بالجامعة الزيتونة بتونس) ص489. وفي قوله تعالى ﴿كتاب الله عليكم﴾ فسروه بمعنى كتب الله تحريم ما حرم من ذلك وتحليل ما حلل من ذلك عليكم كتاباً وفرضه فرضاً، وقيل منصوب على وجه الإغراء بمعنى عليكم كتاب الله، الزموا كتاب الله، وقرئ كتب الله بلفظ الفعل الماضي. انظر: **تفسير الطبري**، ج5، ص9؛ العمادي، محمد أبو السعود، **إرشاد ذوي العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** (تفسير أبي السعود)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ج1، ص164، ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، **زاد المسير في علم التفسير** (بيروت: المكتب الإسلامي، ط3، 1404هـ)، ج2، ص51؛ الجصاص، أحمد بن علي الرازي، **أحكام القرآن** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1984)، ج3، ص86؛ البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق عبد القادر العشا (بيروت: دار الفكر، 1996)، ج2، ص170؛ تفسير القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**،=

2. كتاب الله المنزل على الرسل

يدل لفظ الكتاب في القرآن على ما أنزل على الرسل من تعاليم، وأحكام وأخبار. وقد سمى القرآن بعض هذه الكتب وتحدث عنها صراحة، وبين خصائصها وصفاتها، وأبرزُها القرآن والتوراة والإنجيل. وهناك آيات أخرى تحدثت عن كتاب مترل دون أن تحدد اسمه أو على مَنْ أُنْزل، وذلك حسب التصنيف التالي:

الكتاب بما هو القرآن

وردت نيف وأربعون آية لفظ الكتاب فيها تدل القرائن الحافة به على أنه هو القرآن المترل على محمد ﷺ، ويشير اللفظ فيها إلى الكتاب باعتباره أمراً معهوداً ومعلوماً للمخاطب، ويدل السياق على أنه القرآن المترل على الرسول محمد ﷺ،[1] فقد

=تحقيق أحمد عبد العليم البردوني (القاهرة: دار الشعب، ط2، 1372هـ)، ج5، ص123–124؛ ابن كثير، إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم** (بيروت: دار الفكر 1401هـ)، ج1، ص475؛ وحول قوله ﴿كتابا مؤجلا﴾ انظر: **تفسير الطبري**، ج4، ص115؛ ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج1، ص470، وقوله: ﴿كتابا موقوتا﴾ انظر: **تفسير البيضاوي**، ج2، ص248؛ **تفسير الطبري**، ج5، ص261–262، وقوله: ﴿كطي السجل للكتب﴾ السجل في هذا الموضع الصحيفة، يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب؛ أي على الكتاب يعني المكتوب أوكطي السجل على ما فيه من الكتاب (انظر: **تفسير الطبري**، ج17، ص99–100؛ الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، بيروت: دار الفكر، د.ت)، ج3، ص432.

[1] إن استعراض الآيات والسياقات التي سنثبتها في هذه الفقرة كافٍ للحكم على دعوى محمد شحرور التفريق بين القرآن والكتاب واعتباره القرآن جزءاً من الكتاب وأن المصحف يحتوي على آيات القرآن وآيات الكتاب، وأن آيات القرآن هي آيات النبوة وتتعلق بالحق والباطل وأن آيات الكتاب هي آيات الرسالة وتتعلق بالحلال والحرام، فهو يؤسس مفهوماً للقرآن والكتاب بانتقاء للآيات ودون استقراء لسياقات ورود المفاهيم فيها، فضلاً عن الفهم الخاطئ للقواعد اللغوية التي أسس عليها تفريقه، ينظر: شحرور، محمد، **الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة** (دمشق: مكتبة الأهالي، ط5، 1992)، وقد انتقد الكتاب من مختلف الاتجاهات بما فيه الكفاية في هذا المجال، ونشير إلى أهم ما كتب حوله:

- المنجّد، ماهر، الإشكالية المنهجية في الكتاب والقرآن: دراسة نقدية (دمشق: دار الفكر، 1994م).
- الصيداوي، يوسف، بيضة الديك: نقد لغوي لكتاب (الكتاب والقرآن)، (دمشق: المطبعة التعاونية).
- ياسين، محمد شفيق، في ثلاث مقالات نقدية متتالية في مجلة: **نهج الإسلام**، دمشق، الأعداد: 46، 47، 48، لعام 1991، 1992، 1992.

جاء تعريف القرآن بأنه الكتاب، وأشير إليه بأسماء الإشارة وأل العهد، أو في سياق الحديث عن الرسول أو المخاطبين من أتباعه، وكانت بعض الآيات صريحة في تعريف القرآن بأنه ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: 3)، وقد استخدمت ثلاث صيغ من أساليب الإشارة تدرجت حسب النزول من الحديث عن آيات الكتاب ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾[1] في السور المكية إلى الإشارة إلى الكتاب بكليته ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام: 92 و155)، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ (البقرة: 2). وقد وُصِفَ الكتابُ في هذه الآيات بأنه لا ريب فيه، وأنه هدى ومنزل من الله ومبارك ومصدق الذي بين يديه، وتكرر وصفه بأنه حكيم ومبين. وقد جاءت معظم هذه الأوصاف في الآيات المفتتحة بها السور، وخصوصاً بعد الأحرف المقطعة،[2] وقد وردت آيتان صريحتان في التماهي بين القرآن والكتاب ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر: 1)، ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل: 1)، فالقرآن والكتاب مُبينان وفيهما آيات. كما ورد التعبير عن الكتاب باعتباره معهوداً لدى القارئ، ووصف في هذه السياقات بأنه كتاب لا ريب فيه عزيز مبين متشابه،

- =زيادة، طارق، "طرافة في التقسيم وغرابة في التأويل"، مجلة **الناقد**، العدد 45، عام 1992.
- عبد الحميد، صائب، في مقاله: "الإسلام والقرآن في تصوّرات معاصرة: تفسير محمد شحرور نموذجاً"، في مجلة **قضايا إسلامية**، قم، العدد السابع، عام 1999م.
- أبو زيد، نصر حامد، "لماذا طغت التلفيقية على كثير من مشروعات تجديد الإسلام؟"، مجلة **الهلال**، العدد 10، عام 1991م)، ومقالة أخرى تحت عنوان "المنهج النفعي في فهم النصوص الدينية"، مجلة **الهلال**، العدد 3، عام 1992م).
- زين العابدين، عبد السلام، "الكتاب والقرآن: نقد لأدلة التفريق"، متوفر على الإنترنت: www.islamiccolleges.com.

[1] يونس: 1، يوسف: 1، الرعد: 1، الحجر: 1، الشعراء: 2، النمل: 1، القصص: 2، لقمان: 2.

[2] ورود لفظ الكتاب مقترناً بأوائل السور التالية: البقرة: 2، يونس: 1، هود: 1، يوسف: 1، الرعد: 1، إبراهيم: 1، الحجر: 1، الشعراء: 2، النمل: 1، القصص: 2، لقمان: 2، السجدة: 2، الزمر: 1–2، غافر: 2، فصلت: 3، الزخرف: 2، الدخان: 2، الجاثية: 2، الأحقاف: 2، الطور: 2، الجمعة: 2.

آياته محكمة ومفصلة، وهو تنزيل من الله رب العالمين، العزيز العليم، الحكيم الخبير:[1] ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الزمر: 1، الأحقاف: 2، الجاثية: 2).

وجاءت الآيات الأخرى تتحدث عن الكتاب مبينةً أوصافَه وخصائصَه في إطار خطاب الله للرسول أو الحديث عنه، وهي آيات تتحدث عن صفة ملازمة للكتاب هي: كونه **منزلاً** من قبل الله **على الرسول**،[2] أو **إليه**،[3] فيما وردت صفة **الإلقاء** مقترنة بالكتاب في آية واحدة،[4] **والوحي** في ثلاث آيات، لكن مع اقترانها بـــ"من الكتاب".[5] ووصفت آية أخرى مهمة الرسول بأنها تعليم الكتاب،[6] وبينت آية أخرى رفض اليهود للكتاب المنزل على الرسول،[7] في حين علمت الجن بنزوله بعد كتاب موسى فآمنوا به،[8] كما وردت آيات أخرى تتعلق بالقرآن باعتباره كتاب المخاطبين به أنزل إليهم وعليهم.[9] فالكتاب اسم للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق،[10] ولام الكتاب في هذه الآيات للعهد المحيل على القرآن، وهذا ما ذكره

---

[1] هود: 1، السجدة: 2، الزمر: 23، غافر: 2، فصلت: 3-41، الزخرف: 2، الدخان: 2.

[2] تكرر مع لفظ الإنزال عبارة ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ آل عمران: 3-7، النحل: 64-89، العنكبوت: 51، الزمر: 41، أو ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ النساء: 136، ﴿أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ الكهف: 1.

[3] تكررت مع الإنزال عبارة ﴿إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ النساء: 105-113، المائدة: 48، الأعراف: 2، إبراهيم: 1، العنكبوت: 47، ص: 29، الزمر: 2.

[4] ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ القصص: 86.

[5] ﴿أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ﴾ الكهف: 27، العنكبوت: 45، فاطر:31.

[6] ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الجمعة: 2.

[7] البقرة: 89-101.

[8] ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الأحقاف: 30.

[9] ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ البقرة: 231، ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ النساء: 127، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ النساء: 140، ﴿أَنزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ﴾ الأنعام: 114، الأنبياء: 10.

[10] انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، تحقيق عبد الرحمن النجدي (الرياض: مكتبة ابن تيمية، د.ت)، ج12، ص125.

سائر المفسرين في غير مكان.[1]

هذه الآيات التي تتحدث عن الكتاب باعتباره هو القرآن يشترك معظمها في تأكيد صفة هي الأكثر وروداً واقتراناً بالكتاب وهي كونه **منزلاً** من الله (25 مرة)، وجاءت اللفظة مرتين تصفه بكونه **وحياً** من الله ومرة كونه **ملقى** منه إلى الرسول. أما الصفات الأخرى فأكدت مصدره الإلهي فهو كتاب لا ريب فيه هدى ومبارك ومصدق الذي بين يديه، وتكرر وصفه بأنه حكيم ومبين، وعزيز، ومتشابه آياته محكمة ومفصلة. وهذه الصفات تكررت أيضاً في الآيات التي تحدثت عن القرآن بلفظ القرآن.

لفظ القرآن في القرآن: ورد لفظ القرآن في المصحف 68 مرة، ثمان منها فقط في آيات مدنية.[2] وكان ورود لفظ القرآن متقدماً في تاريخ النزول،[3] واقترنت بلفظ

---

[1] انظر مثلاً حول الآيات: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ ﴿ما أنزل عليكم من الكتاب﴾ ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ المصادر التالية: **تفسير الطبري**، جج، ص557، ج2، ص483، ج4، ص163، ج5، ص275، ج14، ص161-162، ج28، ص94، **تفسير البيضاوي**، ج1، ص522، ج2، ص111، ج2، ص331، ج5، ص337، **تفسير القرطبي**، ج2، ص131، 382/5، ابن حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، **البحر المحيط** (الرياض: مكتبة ومطابع النصر الحديثة، د. ت)، ج3، ص501؛ ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج1، ص160، 268، ج2، ص197، 370، **تفسير ابن كثير**، ج1، ص185، 425، ج2، ص 583، **تفسير الواحدي**، ج1، ص132، 289، 352-617، **تفسير أبي السعود**، ج1، ص228، ج2، ص108، ج2، ص231، ج8، ص247، **تفسير البغوي**، ج1، ص128، النسفى، أحمد بن محمود، **تفسير النسفي**، (د. ط)، ج1، ص112، ج1، ص189، الألوسي، **روح المعاني**، ج2، ص144، ج5، ص144، ج28، ص93، ونقل عن مالك بن أنس أن المقصود بتعليم الرسول الكتاب هو الخط بالقلم (انظر: الشوكاني، **فتح القدير**، ج5، ص225)، وفي قوله: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه﴾ اختلف في معنى الكتاب حسب تفسير من فمن اعتبرها للتبيين اعتبر الكتاب هو القرآن، ومن اعتبرها تبعيضية أو ابتدائية فسر الكتاب باللوح المحفوظ أو جنس الكتاب انظر: **تفسير الطبري**، ج22، ص133، **تفسير القرطبي**، ج14، ص345، الشوكاني، **فتح القدير**، ج4، ص349، **تفسير النسفي**، ج3، ص343، الألوسي، **روح المعاني**، ج22، ص193-194.

[2] البقرة: 185 النساء: 82، المائدة: 101، التوبة: 111، الرعد: 31، محمد: 24، الحشر: 21، الإنسان: 23.

[3] ورد لفظ القرآن في ثالث سورة أنزلت (المزمل: 4)، فيما ورد لفظ الكتاب في ثاني سورة أنزلت (القلم) أما فيما يخص تسمية القرآن بالكتاب فأول مرة وردت في سورة ص التي ترتيبها في النزول 38، وهو رابع ورود للفظ الكتاب في القرآن بعد سور: القلم والمدثر وق.

القرآن صفاتٌ عديدة وردت في لفظ الكتاب.[1] فهو **مترل** من الله،[2] **وموحى** منه،[3] **وملقى** إلى رسوله،[4] **ومؤتى** إليه،[5] كما وصف الْقُرْآن بأنه حَكِيمٌ ومُبِينٌ وكَرِيمٌ ومَجِيد وفي لوح محفوظ، وهُدًى وَشِفَاء، وغَيْرُ ذِي عِوَجٍ، وذُو الذِّكْرِ، وأنه يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم،[6] ووصف بأنه عربي عديد المرات،[7] وقد اقترن القرآن والكتاب معاً في سياق واحد أربع مرات، مرتان منها تدلان على **التماهي** بين القرآن والكتاب،[8] والمرتان الأخريان تشيران إلى أن **القرآن تفصيل للكتاب**.[9]

هذه المعطيات سنعود إليها لاحقاً بعد استكمال عرض المعطيات القرآنية المتعلقة بالكتاب بما هو كتاب سماوي مترل.

الكتاب بما هو التوراة

ورد لفظ الكتاب في عديد الآيات معنياً به التوراة التي أنزلت على موسى، وقد دل على ذلك اقترانُها بذكر موسى أو قومه بني إسرائيل، فتكرر ذكر **إيتاء الكتاب**

---

[1] القرآن عَلَم شخصي على الكتاب الكريم المشار إليه في الآيات، وثمة اشتراك في المعنى بين لفظ الكتاب والقرآن لغوياً، فمادتا كتب وقرأ تدوران على معنى الضم والجمع مطلقاً (انظر: دراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن** (الكويت: دار القلم، ط2، 1970)، ص12-13، وانظر: الأصفهاني، **المفردات**، ص668-669.

[2] البقرة: 185، المائدة: 101، يوسف: 2، طه: 2-113، الفرقان: 32، الزخرف: 31، الحشر: 21، الإنسان: 23، الإسراء: 82.

[3] الأنعام: 19، يوسف: 3، الشورى: 7.

[4] ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيم﴾ (النمل: 6).

[5] الحجر: 87، يونس: 15.

[6] يس: 2-69، ق: 1، البروج: 21، الواقعة: 77، فصلت: 44، الزمر: 28، ص: 1، الإسراء: 9.

[7] يوسف: 2، طه: 113، الشورى: 7، الزمر: 28، فصلت: 44، الزخرف: 3.

[8] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِين﴾ الحجر: 1، ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِين﴾ النمل: 1.

[9] ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس: 37، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصلت: 3.

لموسى ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾،[1] واقترن به أخوه هارون في آية أخرى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ (الصافات: 117). ووصف **بالإنزال** في آية واحدة،[2] ووصف بكونه كتاباً سابقاً للقرآن وقد أضيف إلى موسى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ (هود: 17، الأحقاف: 12).

أما الصفات التي اقترنت بالكتاب الذي هو التوراة فقد وصف بأنه كِتَاب مُسْتَبِين، وتفصيل لكل شيء، وبَصَائِر لِلنَّاسِ، ونور، وإمام، ورحمة، وهُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ والناس.[3]

هذا وقد تحدث القرآن عن الكتاب/التوراة باعتباره مؤتى لبني إسرائيل (مع الحكمة والنبوة) وتوريثهم إياه،[4] كما وصفت الآيات موقفهم من الكتاب وذلك في سورة البقرة حسب الترتيب فهم ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾، ﴿وهم يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ﴿ويؤمنون بِبَعْضِ الْكِتَابِ ويَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، ﴿ويَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ (البقرة: 44، 78، 79، 85، 113، 174).

وبخلاف الحديث عن الكتاب التوراة في سياق الحديث عن موسى وبني إسرائيل، فقد وردت صيغ أخرى لاستعمال لفظ الكتاب في القرآن مقصوداً به التوراة، وذلك في إطار الحديث عن طوائف كانت في عصر نزول القرآن (اليهود والنصارى)، وكان لها ارتباط وثيق بالكتاب التوراة، فعبر عنهم بالانتساب إلى الكتاب. وقد يكون المقصود كلا الفريقين اليهود والنصارى أو أحدهما، لكن معظم السياقات كانت

---

[1] البقرة: 53– 87، هود: 110، المؤمنون: 49، الفرقان: 35، الإسراء: 2، الأنعام: 154، القصص: 43، السجدة: 23، فصلت: 45.

[2] ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ الأنعام: 91.

[3] الصافات: 117، الأنعام: 154، القصص: 43، الأنعام: 91، هود: 17، الأحقاف: 12، الإسراء: 2، السجدة: 23.

[4] الجاثية: 16، غافر: 53.

مجملة، وغالبها يدل على قصد اليهود، فعبر عنهم بصيغة أهل الكتاب31 مرة أو الذين أوتوا (آتيناهم) الكتاب 28 مرة.[1] وإنما اشتمل النصارى مع اليهود في هذين التعبيرين نظراً لأن التوراة جزء من كتاب النصارى والإنجيل زائد عليه. وقد أشار القرآن إلى أخذ يحيى للكتاب، وفسر على أنه التوراة،[2] وكذلك أُوتي عيسى الكتاب وهو في المهد، واختلف فيه هل هو الإنجيل أو التوراة،[3] كما وصف النصارى بأنهم يتلون الكتاب وكذا اليهود،[4] ولئن لم يفرد قصد الإنجيل بالكتاب صراحة فقد ورد ذكر الإنجيل مفرداً عديد المرات كما ورد ذكر التوراة.

ذكر التوراة والإنجيل[5] في القرآن: ورد ذكر التوراة 18 مرة، والإنجيل 12 مرة، واقترنا معاً في عشرة آيات منها، وقد وصفا بأنهما متزلان من قبل الله قبل محمد وبعد إبراهيم وأن فيهما هدى للناس،[6] وقد عُلِّمَهما عيسى مع الكتاب والحكمة.[7] ويؤمر أهل

---

[1] أفردنا الحديث عن أهل الكتاب والذين أوتوا الكتاب في إطار الحديث عنهم وعن الأميين انظر:ص 95 وما بعدها.

[2] مريم: 12، انظر: الطبري، التفسير، ج16، ص45، القرطبي، التفسير، ج11، ص86، ابن كثير، التفسير، ج3، ص114.

[3] ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ مريم: 30، ورُجح معنى القضاء الإلهي بإيتائه الكتاب انظر: تفسير الطبري، ج16، ص80، تفسير القرطبي، ج11، ص102-103، تفسير ابن كثير، ج3، ص121, تفسير البيضاوي، ج 4، ص13.

[4] البقرة: 113.

[5] التوراة من الألفاظ المعربة وأصلها عبرانية، وهي علم على الكتاب الذي أنزل على موسى، ويصعب الجزم إن كانت من مصطلحات الجاهليين أو نفي ذلك (انظر: جواد علي، م.س: 6، ص111-113)، وكذلك الإنجيل من الألفاظ الأعجمية وهو علم على الكتاب الذي أوتيه عيسى. وقد حاول البعض أن يجد للفظين اشتقاقاً ووزناً لكنه رُدَّ لتكلفه (انظر: الهائم المصري، شهاب الدين أحمد بن محمد، **التبيان في تفسير غريب القرآن** (القاهرة: دار الصحابة، ط1، 1992)، ص141-142، وحول كلمة إنجيل في الإسلام انظر: خوام، منير، **المسيح في الفكر الإسلامي الحديث وفي المسيحية** (بيروت: المؤلف، ط1، 1983)، ص60 وما بعدها).

[6] آل عمران: 3-4 و65.

[7] آل عمران: 48 المائدة: 110.

الكتاب بإقامتهما،[1] وذكر محمد ووصف الذين معه مذكور فيهما.[2] وفي حديث القرآن عن التوراة مفردة بيَّن كونَها مترلةً من عند الله، وفيهَا حكم الله وهُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ،[3] وأوضح موقف بني إسرائيل منها إذ حرموا مالم يحرمه الله في التوراة، ودعاهم إلى الرجوع إليها، وبين عدم احتكامهم إليها أو إلى الرسول، وضرب المثل على عدم امتثالهم لما في التوراة أو انتفاعهم بما فيها،[4] وقد بعث الله عيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاة،[5] وآتاه الله الإنجيل مصدقاً أيضاً،[6] ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة: 46-47)، وقد سجل الله وعد الجنة للمؤمنين المقاتلين في سبيله في التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآن، وهي المرة الوحيدة التي اقترن فيها ذكر الكتب الثلاثة معاً،[7] أما الكتاب الرابع الذي يضاف إليهم عادة فهو الزبور.

الكتاب والزبور

جاء لفظ الزبور مقترناً بداود باعتباره كتاباً أوتيه من عند الله ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (النساء: 163، الإسراء: 55)، وأخبرت آية أخرى عما كتبه الله في الزبور ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: 105). لكن الصيغة المتعلقة بداود جاءت نكرة، والصيغة الأخرى معرفة، فهل يكون

---

[1] المائدة: 66-68.

[2] الأعراف: 157، الفتح: 29.

[3] المائدة: 43-44.

[4] آل عمران: 93، المائدة: 43، الجمعة: 5.

[5] آل عمران: 50، المائدة: 46، الصف: 6.

[6] الحديد: 27.

[7] ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ التوبة: 111.

المقصود بالزبور في كلا الأمرين المعنى اللغوي، فيكون زبور داود كتاباً ما وليس عَلماً على الكتاب الذي أوتيه داود، ويكون ما أخبر الله عن ذكره في الزبور المقصود به الكتاب عموماً، أو شاملاً جميعَ الكتب؟ لعل السياق يدل على كون الزبور بمعنى الكتاب وهو المعنى اللغوي، ويؤكد ذلك صيغة الجمع الواردة في الآيات الأخرى، فقد جاء الرسل بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ،[1] وتحدثت آيات أخرى عن زُبُرِ الْأَوَّلِينَ.[2] لكن اقتران لفظ الزبر بالْكِتَابِ الْمُنِيرِ يدعو للتساؤل عن العلاقة والفرق بينهما. أصل الزبور كل كتاب غليظ الكتابة والزبور والكتاب واحد، ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبر، و(زبرت أي كتبت)، فالزبر جمع زبور وهو الكتاب. وقال بعضهم هو اسم للكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية، ولهذا يقال للمنزل على داود عليه السلام إذ لا يتضمن شيئاً من الأحكام الشرعية. والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام. وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته، وخصها بعضهم بالكتب المكتوبة كصحف إبراهيم، أو كل كتاب يصعب الوقوف عليه من الكتب الإلهية، وفسرت بعض السياقات بكتب الأعمال التي يتلقاها الإنسان يوم القيامة.[3] ولعل التعدد والتنوع في استعمال اللفظ وما أشرنا إليه من تنكير لفظ الزبور المقترن بداود وتعريف الزبور في سياق يعم التوراة والإنجيل وغيرها، يؤكد أن المقصود بالزبور معناه اللغوي، أما الكتاب المقترن به فالمقصود به الكتاب السماوي المنزل على الرسل.

---

[1] آل عمران: 184، فاطر: 25 النحل: 44.

[2] الشعراء: 196، القمر: 43-52.

[3] انظر: **تفسير الطبري**، 4، ص198، ج17، ص103-104، ج22، ص130، ج27، ص112، **تفسير البيضاوي**، ج2، ص126، 122، **تفسير القرطبي**، ج11، ص349، الأصفهاني، **المفردات**، 377، ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج5، ص397، **تفسير النسفي**، ج3، ص93، **تفسير أبي السعود**، ج2، ص122، الشوكاني، **فتح القدير**، ج4، ص346، الألوسي، **روح المعاني**، ج17، ص103، علي، جواد، **تاريخ العرب قبل الإسلام** (بغداد: المجمع العلمي العراقي، 1956)، ج6، ص114-116.

هذه الكتب التي أنزلها الله هي محور من محاور الإيمان التي يتعلق بها، فقد آمن بها الرسول والمؤمنون وصدقت بها مريم،[1] بينما كذب بها المشركون الذين كان لهم تصور خاص للكتاب السماوي أشار إليه القرآن.

3. الكتاب في تصور المشركين ومعاصري الرسول

لقد كان لمشركي العرب تصور لوجود كتاب إلهي منزل على البشر، وكانوا على علم بطبيعة كتب أهل الكتاب ولم يكونوا مؤمنين بها، إلا أنهم كانوا يتخذون من صيغتها الملموسة معياراً يحاجون به الرسول. لذلك طلب منهم القرآن إن لم يؤمنوا بالكتاب أن يأتوا بأفضل منه،[2] فطلبوا من الرسول أن ينزل عليهم كتاباً يُقرأ.[3] ولما كان احتجاجهم بنمط كتب أهل الكتاب للمماطلة وكون الكتاب الجديد مختلفاً عنها إذ لم ينزل صحفاً تلمس، بيّن القرآن أنه لو كان كما يشتهون لم يكونوا ليؤمنوا.[4] وقد استنكر القرآن عليهم هذه المحاجة في الكتاب، إذ هم ليسوا قوم كتاب، ولم يكن لهم تاريخٌ مع الكتب حتى يشترطوا فيه ما اشترطوا،[5] وحتى الرسول نفسه لم يكن يقرأ كتاباً من قبل أن ينزل عليه القرآن بل لم يكن يدري ما الكتاب أصلا.[6]

ويبدو أن المشركين كانوا يعتذرون لجهلهم بقضايا الغيب والدين بعدم تلقيهم

---

[1] البقرة 285 التحريم: 12.

[2] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ۞ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ القصص: 48-49.

[3] ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ الإسراء: 93.

[4] ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الأنعام: 7.

[5] ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ سبأ: 44.

[6] ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ العنكبوت: 48، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ الشورى: 52.

كتاباً، وأنهم كانوا يتمنون أن لو كان لديهم ما أوتي اليهود والنصارى لكانوا أهدى منهم. لكنه اعتذار واه إذ جاءهم ما كانوا يتمنون فلم يؤمنوا،[1] وهم رغم اعترافهم بعدم تلقيهم كتاباً أو علمهم به كانوا يبتدعون في الدين وينسبون إلى الغيب أموراً لا يمكن علمها إلا من خلال كتاب منزل من الله، لذلك ساءلهم القرآن عن مصدرهم فيما يدعونه وأن يأتوا بكتاب.[2]

وبالتالي فتصور المشركين للكتاب الإلهي تصور مضطرب، فهم بين معترف بجهلهم به وعدم علمهم بما فيه وتمنيهم لو أنزل عليهم، وبين مبتدع ديناً وتصوراتٍ هي من علم الغيب الذي لا يحصل إلا بإخبار الكتاب. ومع ذلك رفضوا الكتاب الذي أنزل عليهم وقايسوه إلى معطيات شكلية تتعلق بالكتب السابقة، فكان الرد عليهم مباشراً وفي أوائل ما نزل من القرآن من خلال مساءلتهم عن الكتاب ومصدر ما يدَّعونه، وغيرَ مباشر ببيان طبيعة الكتاب الذي أنزل عليهم وبشكل متوال متواتر في مختلف السور، فجاءت معظمُ السور المكية والسور المفتتحة بالأحرف المقطعة تبين طبيعة الكتاب الإلهي وخصائصَه، وتشير إليه بأنه هذا الذي تقرأونه وتسمعونه وتعجزون عن محاكاته ودحضه أو الإتيان بمثله، وهو بلغتكم وأحرفكم عربي مبين، وهو في الآن نفسه كتاب الله منزل من عنده.

كتاب الله من خلال الآيات التي تناولناها، كما وصفه القرآن وعرَّف به، هو

---

[1] ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ الأنعام: 156-157 (انظر: ابن حيان، **البحر المحيط**، ج4، ص275).

[2] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأحقاف: 4، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ فاطر: 40، ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الصافات: 157، ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ القلم: 37، ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ الزخرف: 21.

الكتاب الإلهي المنزل والمقصود به هنا التوراة والإنجيل والقرآن، وقد أوضحناها في سياق التعبير عنها بالكتاب أو بأسمائها العَلمية. وكان للمشركين تصور خاص للكتاب الذي طالبوا به، لكن ما قدمناه من وصف لما ورد في القرآن حول الكتاب ليس كلَّ ما ورد فيما يخص الكتاب السماوي، فهناك آيات ورد لفظ الكتاب فيها مجملاً، قد يكون هو الكتاب السماوي أو أحد الكتب السماوية أو شيئاً آخر، وهو ما سنحاول استجلاءه فيما يلي.

4. كتاب أعمال الإنسان

بما أن الكتاب سجل توثق به الأمور وتحصى، فقد قرب الله عدالته من تصور الإنسان فجعل أعماله محصاة عليه، وهذا الإحصاء سيعلمه الإنسان يوم القيامة في كتاب يلقاه منشوراً، فيكون الكتاب حسيباً عليه، إذ هو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إذ استنسخت فيه أعمال الإنسان. وهناك مراسم لتلقي الإنسان له يوم القيامة حسب المضمون الذي فيه،[1] فكل أمة تدعى إلى كتابها الذي كتبته الملائكة عليها،[2] ويكون الكتاب بمثابة ناطق عليهم بأعمالهم يذكرهم بما عملوا.[3] وقد وصف بأنه كتاب مرقوم أي مسطور بيِّن الكتابة، مكتوب كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى، مثبت كالرقم لا يبلى، وشاع الرقم في الكتابة وهو أصل معناه،[4] وفي هذه الصفات

---

[1] الإسراء: 13-14-71، الكهف: 49، المؤمنون: 62، الجاثية: 29، الحاقة: 19-25، النبأ: 29، المطففين: 7-9-18-20، الانشقاق: 7-10.

[2] وقيل: هو الكتاب المنزل على الأمة أو اللوح المحفوظ، انظر: **تفسير الطبري**، ج25، ص155، **تفسير القرطبي**، ج16، ص174-175.

[3] ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية: 29، انظر: **تفسير الطبري**، ج25، ص156، **تفسير القرطبي**، ج16، ص175.

[4] انظر: **تفسير الطبري**، ج30، ص94-95-96، **تفسير البيضاوي**، ج5، ص465، **تفسير القرطبي**، ج19، ص258، **تفسير أبي السعود**، ج9، ص126، **تفسير النسفي**، ج4، ص323، الألوسي، **روح المعاني**، ج30، ص71-72.

لكتاب الأعمال إشارة إلى موثوقيته.

5. كتاب الله/علمه المحيط

استعمل القرآن لفظ الكتاب للدلالة على كتاب خاص اختص الله بعلمه، هذا الكتاب يحتوي من العلم ما لا ينطبق إلا على الغيب وعلم الله المحيط الذي يُسيّر الكون وينظمه، فهو كتاب مبين فيه أحداث الكون بكلياتها وجزئياتها، سواء المتعلقة بالإنسان أو غيره.[1] كما يشتمل هذا الكتاب على سنن الله التي ضبطت من خلالها الآجال والأعمار والأقدار والأحداث سواء بالنسبة للأفراد أو الأمم أو الكون،[2] لذلك قال الله عن هذا الكتاب: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ** مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 38)، وبالتالي فالكتاب يرادف في هذا علم الله المطلق، وقد استخدم تعبير **كتاب الله** في القرآن بمعنى علم الله،[3] وعبرت آية أخرى عن كون علم الله في كتاب،[4] وتجليات علم الله هذا في الواقع بتغيراته المختلفة (المحو والإثبات) ترتبط بسنن إلهية ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، وهي ما أسماه القرآن أم الكتاب التي يرجع إليها علم الكتاب، والتي عنها يصدر كتاب الله المقروء، القرآن الذي له المكانة العلية والحكيمة في أم الكتاب. واختص لفظ أم

---

[1] ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الأنعام: 59، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يونس: 61، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هود: 6، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سبأ: 3، ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ النمل: 75.

[2] الأنفال: 68، الرعد: 38، الإسراء: 58، طه: 52، فاطر: 11، ق: 4، الحديد: 22.

[3] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الروم: 56.

[4] ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج: 70.

الكتاب بزخم معنوي خاص فسرت به ألفاظ الكتاب الأخرى.

وقد وردت عبارة أم الكتاب في القرآن ثلاث مرات،[1] فآية آل عمران تتعلق بالكتاب القرآن وتقسيم آياته إلى محكمات ومتشابهات، واعتبار المحكمات هن أم الكتاب بمعنى أصل الكتاب تُحمل المتشابهاتُ عليها وتُرَدُّ إليها، فالمراد بالكتاب كل القرآن، لكن بعض التفاسير عممت المقصود بالكتاب فاعتبروا الآيات المحكمات هن أم كل كتاب أنزله الله تعالى على كل نبي، وأن فيهن كل ما أحل وحرم وعللوا تسميتهن بأم الكتاب لأنهن مكتوباتٌ في جميع الكتب أو لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن.[2] أما آية الرعد فبيَّنت ظاهرة تدخل الله في الكون عبر المحو والإثبات واختصاصه بأم الكتاب. وقد تنوعت وتعددت التفاسير في معنى أم الكتاب هنا فقيل: جملة الكتاب وأصله، أو علم الله القائم بذاته، أو لوح القضاء السابق الذي هو عقل الكل وفيه كل ما كان ويكون، أو اللوح المحفوظ، أو الحلال والحرام، أو الذكر، أو العقل الأول، ونقلوا عن ابن عباس أنه سأل كعب الأحبار عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق وما خَلْقُه عاملون، فقال لعلمه كن كتاباً فكان كتابا.[3]

وظاهرٌ ما في هذه التفسيرات من غموض واقتباس من الإسرائيليات، وهو ما سيتكرر في تفسير آية الزخرف التي تحدثت عن مكانة القرآن في أم الكتاب، فذكروا أن المقصود أصل الكتاب وجملته، وأصل كل شيء أمه فاستعير لفظ الأم للأصل؛ لأن

---

[1] ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ آل عمران: 7، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الرعد: 39، ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الزخرف: 4.

[2] انظر: **تفسير النسفي**، ج1، ص142، **تفسير أبي السعود**، ج2، ص7، **تفسير الواحدي**، ج1، ص199، **تفسير ابن كثير**، ج1، ص345-346.

[3] انظر: **تفسير الطبري**، ج13، ص171 (وقد نقل روايات طويلة وعجيبة حول أم الكتاب، ج13، ص165-170)، الألوسي، **روح المعاني**، ج13، ص170، 178-179، المناوي، محمد عبد الرؤوف، **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق رضوان الداية (دمشق: دار الفكر، ط1، 1410هـ)، ص94، الجرجاني، الشريف علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1985)، ص53.

الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول. فالقرآن بما هو كتاب له أصل هو أم الكتاب، وقد فسرت بأنها: علم الله الأزلي أوالآيات المحكمات، أو اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية، فالقران مُنْبَتٌ عند الله في اللوح المحفوظ كما قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيْدٌ فِيْ لَوْحٍ مَحْفُوْظٍ﴾ (البروج: 22).[1]

هذه التفسيرات تشترك في كون **أم الكتاب عَلم على كتاب اختص الله به،** وهو نفس معنى كتاب الله الغيبي الشامل لعلمه المعبَّر عنه بلفظ الكتاب، وفسره المفسرون على أنه أم الكتاب أو اللوح المحفوظ في عديد الآيات الأخرى، وبعضها يحتمل أكثر من معنى.[2]

واسم اللوح المحفوظ أصبح علماً لهذا الكتاب ومفسِّراً لألفاظ الكتاب الدالة على الغيب، ولم يرد في القرآن غير مرة واحدة في سورة البروج: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي

---

[1] انظر: تفسير الطبري، ج25، ص48، المصري، **التبيان في تفسير غريب القرآن**، ص372، **تفسير البيضاوي**، ج 2، ص7، ج3، ص334، ج5، ص138، **تفسير القرطبي**، ج9، ص333، ج16، ص62، الصنعاني، **التفسير**، (الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1410)، ج2، ص338، النحاس، **معاني القرآن**، ج6، ص334، **تفسير أبي السعود**، ج5، ص27، ج8، ص39، **تفسير الواحدي**، ج1، ص575، ج2، ص970، ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج4، ص338-339، ج7، ص302، **تفسير النسفي**، ج2، ص221، الشوكاني، **فتح القدير**، ج4، ص547، الألوسي، **روح المعاني**، ج25، ص64.

[2] مثلاً الآيات: الأنعام: 38، الأعراف: 37، الأنفال: 68-75، الإسراء: 58، طه: 52، الروم: 56، النمل: 75، فاطر: 11، الواقعة: 78، الحديد: 22، وقد فسرت بأم الكتاب على أنه اللوح المحفوظ انظر تفسيرها في: **تفسير الطبري**، ج7، ص188، ج8، ص168 وما بعدها، ج10، ص44-45، ج15، ص107، ج16، ص173، ج17، ص200، ج20، ص11، 21، ص57-58، ج22، ص 155، ج27، ص204-205، ج27، ص233، **تفسير القرطبي**، ج7، ص203، ج13، ص231، ج14، ص48، ج17، ص224-225، **تفسير البيضاوي**، ج3، ص19 ، ج4، ص342، ج5، ص292، ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج3، ص35، ج3، ص193، ج3، ص381-382، ج 3، ص387، ج6، ص312، ج8، ص151، **تفسير ابن كثير**، ج3، ص441، **تفسير الواحدي**، ج2، ص846، **تفسير أبي السعود**، ج8، ص200، الشوكاني، **فتح القدير**، ج2، ص114، ج2، ص203، ج5، ص160، ج5، ص 176، الألوسي، **روح المعاني**، ج7، ص145، ج8، ص131، ج21، ص60، 27، ص153-154، الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج1، ص277.

لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (البروج: 21-22)، فتشير الآية إلى كون القرآن الكتاب السماوي الذي أنزل على الرسول الخاتم موجوداً في لوح محفوظ.[1] وفسرت بهذه الآية أم الكتاب التي أشير إلى كون القرآن فيها، وفي هذه الآيات ربط بين كتاب الغيب والكتاب السماوي المترل.

هذا عن الكتاب الإلهي الذي يتجلى فيه علم الله المحيط والمطلق المقابل للكتاب السماوي المترل. ولئن كان معنى الكتاب صريح الدلالة على معنى لغوي أو اصطلاحي إما يتعلق بكتاب الله الغيبي الذي لا يطلع عليه أحد، أو كتاب الأعمال الذي يحاسب به الإنسان، أو الكتاب السماوي الذي أنزل على الرسل، فإن هناك عدة سياقات حيرت المفسرين في تفسير معنى الكتاب فيها، فتعددت تفسيرات الكتاب. هذه السياقات هي ما سنصطلح عليها بالإشكالية، وربما فسر البعض بعضها بأحد المعاني سابقة الذكر، وسنعرض لما قيل فيها مبينين البعد الإشكالي في فهمها، ونرجئ تعليقنا إلى نهاية ما سنعرضه من سياقات.

6. السياقات الإشكالية للكتاب

1. الكتاب المسطور:[2] افتتحت سورة الطور بالقسم بالطور والكتاب المسطور، وقد فسر كونه مسطوراً بأنه مكتوب، والسطر ترتيبُ الحروف المكتوبة في رق منشور، والرق ما رقق من الجلد يُكتب فيه، والرَّق (بالفتح) جلدٌ رقيق يكتب فيه استعير لما كتب فيه الكتاب، والمنشور المبسوط، وقوله "في رق منشور" أي في ورق

---

[1] فسروا الآية بحفظ القرآن من الشياطين ومن الزيادة فيه والنقصان منه، وذلك كونه مستنسخاً من اللوح المحفوظ وكذلك سائر الكتب المترلة مستنسخة منه فهو محفوظ عند الله. وقرأ نافع محفوظ رفعاً على نعت القرآن، فالمعنى إنه محفوظ من التحريف والتبديل. هذا وقد ذكر المفسرون روايات هي من قبيل "العجائبيات" المتداولة حول أمور الغيب المتعلقة بالسماء والعرش، كما نقلوا رأياً بأن اللوح المحفوظ هو جوهر مجرد ليس في حيز، انظر: **تفسير الطبري**، ج30، ص140، **تفسير القرطبي**، ج19، ص298، ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج9، ص79، الألوسي، **روح المعاني**، ج30، ص94.

[2] ﴿وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ. وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (الطور: 1-6).

منشور. وفُسر الرَّقّ (بالفتح) بما بين المشرق والمغرب، فيكون معنى منشور منسوخ ما بين المشرق والمغرب.

وقد اختلف في المقصود بالكتاب فقيل هو:

- القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ.
- سائر الكتب المترلة على الأنبياء.
- الصحف.
- ما كتبه الله في اللوح المحفوظ.
- ألواح موسى عليه السلام اعتباراً لذكر الطور.
- ما تكتبه الحفظة من صحائف الأعمال.
- قلوب أوليائه وما فيها من المعارف والحكم.

وذكروا أنه لا ينبغي أن يحمل شيء من هذه الأقوال على التعيين وإنما تورد على سبيل الاحتمال.[1]

إن البعد الإشكالي واضح من خلال تعدد التفسيرات للكتاب، فهو من جهة يتخذ صفات الكتاب الذي يتداوله البشر من حيث ماديته وانتظامه بخط مسطور على ما يكتب عليه، ومن جهة أخرى يقترن بمعان تتصل بالكون ومخلوقات الله من جبال وبحار وسماء. فأي صلة بين هذه المعاني والكتاب المسطور المنشور؟

2. الذي عنده علم من الكتاب:[2] ذكر القرآن أن الذي حقق رغبة سليمان في إحضار عرش ملكة سبأ هو مَنْ عنده علم من الكتاب، فاختُلف في الشخص المقصود

---

[1] انظر أقوال المفسرين في: **تفسير الطبري**، ج27، ص15-16، **تفسير البيضاوي**، ج5، ص244، **تفسير القرطبي**، ج17، ص59، ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج8، ص45-46، **تفسير أبي السعود**، ج8، ص146، **تفسير النسفي**، ج4، ص183، **تفسير البغوي**، ج4، ص236، الشوكاني، **فتح القدير**، ج5، ص94، الألوسي، **روح المعاني**، ج27، ص27.

[2] حكاية عن سليمان: ﴿قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ النمل: 38-40.

وفي الكتاب الذي عنده علم منه فقيل: هو ملك من الملائكة بيده كتاب المقادير، أو جبريل عليه السلام، وقيل هو رجل من الإنس: إما رجل صالح كان يعلم اسم الله الأعظم، أو هو سليمان عليه السلام، أو شخص اختلف في اسمه كان صدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم أو كان قد قرأ كتب الله سبحانه. وبناء عليه فُسِّر علم الكتاب تفسيرات مختلفة فهو:

- علمه بكتب الله المترلة.
- أو بما في اللوح المحفوظ.
- أو علم ما كتب الله لبني آدم.
- اسم الله الأعظم (رأي الجمهور من المفسرين).
- وقيل علم كتاب سليمان إلى ملكة سبأ.[1]

وهي تفسيرات متضاربة ومتناقضة تعبر عن حيرة ورجم بالغيب، وذلك أمر طبيعي لأنه لا يمكن تفسير الكتاب برؤية جزئية لوروده في آية من الآيات، والذي يثير الإشكال في فهم الكتاب هنا أن المخلوقات تطلع عليه وتستطيع بعلمها به أن تخرق المألوف والمعتاد، وهذا يعني أن هذا الكتاب يكشف للمطلع عليه القوانين التي تحكم المادة وحركتها، فأي علاقة بين هذا الكتاب والسياقات الأخرى التي ورد فيها ذكر الكتاب وأي معنى للكتاب يمكن أن تضيفه؟

3. الكتاب الذي علَّمه الله عيسى:[2] يذكر الله تعالى في آيتين فضلَه على عيسى

---

[1] انظر هذه الأقوال في: **تفسير الطبري**، ج19، ص159-162-163، تفسير القرطبي، 13، ص205، **تفسير الواحدي**، ج2، ص804، ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج6، ص175، **تفسير النسفي**، ج3، ص213- 214، الشوكاني، **فتح القدير**، ج4، ص140، قال صديق حسن القنوجي: "وفي الآية تنبيه على أنه اقتدر عليه بقوة العلم"، انظر: القنوجي، صديق حسن، **أبجد العلوم** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1978)، ج1، ص91.

[2] في بشارة الملائكة مريم بعيسى ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ آل عمران: 48، ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ المائدة: 110.

بن مريم بتعليمه الكتاب والحكمة، ولئن فَصَّل القرآن تعبير الكتاب على أنه الكتاب السماوي كالتوراة والإنجيل والقرآن في بعض السياقات فإنه مستبعد عندما يرد ذكر الكتاب مقترناً بالتوراة والإنجيل، لذلك اختُلِف في تفسير الكتاب الذي علَّمه الله عيسى مع التوراة والإنجيل فقيل:

- الكتابة والخط الذي يخطه بيده، وهو رأي معظم المفسرين.
- أنه كتب النبيين وعلمهم.
- أن الـــ في الكتاب للجنس أي جنس الكتب المنزلة وخص الكتابان لفضلهما.
- كتاب أو بعض الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه غير التوراة والإنجيل مثل الزبور وغيره.[1]

وهي تفسيرات للخروج من الإشكال الواضح الذي يطرحه السياق من خلال اقتران الكتاب بالتوراة والإنجيل مع اسم عيسى الرسول الذي أنزل عليه كتاب الإنجيل، فكيف يكون الكتاب غير التوراة والإنجيل ويتعلمه عيسى، فما هو الكتاب إذا؟ وما صلته بالسياقات الأخرى؟

4. الكتاب بمعنى جنس الكتاب بشكل عام: وردت عدة سياقات لَفظُ الكتاب فيها غير محدَّد بكتاب بعينه، والمقصود به كتاب أنزل على الرسل. وتشير هذه السياقات إلى كونه كتاباً واحداً أنزل على جميع الرسل، بينما الآيات الأخرى تشير إلى كتب متعاقبة أنزل كل منها على رسول معين، فهي كتب متعددة وليست كتاباً واحدا. وللخروج من

---

[1] كما اختلف في معنى الحكمة المقترنة بالكتاب فقيل هي:جنس الكتاب والحكمة، أو السنة التي يوحيها إليه في غير كتاب، أو الفقه وعلم الحلال والحرام، أو جميع ما علمه من أمور الدين، أو سنن الأنبياء عليهم السلام وقضاء النبيين، أو الصواب في القول والعمل، أو إتقان العلوم العقلية. انظر أقوال المفسرين في: **تفسير الطبري**، ج3، ص 274، ج7، ص127، **تفسير البيضاوي**، ج2، ص41، **تفسير القرطبي**، ج4، ص93، **تفسير ابن كثير**، ج1، ص 365، ج2، ص116، **تفسير أبي السعود**، ج3، ص95، ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج1، ص391، الألوسي، **روح المعاني**، ج3، ص166، ج7، ص57.

هذا الإشكال اعتبر المفسرون أن المقصود بالكتاب في هذه الآيات جنسُ الكتاب من غير تحديد كتاب بعينه بما يشمل كلَّ ما أُنزل على كل الرسل، وبعضهم جعله الوحي، كما أشير إلى تفسيرات أخرى بعيدة، فيما لم تعرج بعض التفاسير على مفهوم الكتاب أصلاً،[1] ومعظم الآيات التي فسر بها الكتاب بجنس الكتاب هي تلك التي تتعلق بـــ:

- الكتاب الذي أنزل على الرسل ومما اقترن بالكتاب المنزل الميزان.[2]
- الكتاب الذي سبق بين يدي الرسول الخاتم وجاء مصدقاً به.[3]
- الكتاب الذي آمن به الرسل أو أمروا بالإيمان به.[4]

---

[1] انظر أقوال المفسرين في مختلف الآيات: **تفسير الطبري**، ج27، ص236–237، ج5، ص140، ج22، ص133–134–136، ج27، ص237، **تفسير القرطبي**، ج16، ص15، الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995)، ج4، ص211، 467، ابن حيان، **البحر المحيط**، ج4، ص175، ج4، ص306، ج8، ص227، ج8، ص266، الرازي، فخر الدين، **مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)** (القاهرة: البهية المصرية، ط1، 1935)، ج8، ص214، ج12، ص10، ج27، ص159، ج29، ص240، الأصفهاني، تفسير سورة البقرة، ص450، **تفسير البيضاوي**، ج2، ص331، ج4، ص268، **تفسير ابن كثير**، ج3، ص365، ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج2، ص370، ج6، ص487–488، ج8، ص174، **تفسير البغوي**، ج1، ص442، **تفسير أبي السعود**، ج2، ص190، ج6، ص286، **تفسير النسفي**، ج1، ص227، ج3، ص343، ج4، ص220، الشوكاني، **فتح القدير**، ج4، ص349، الألوسي، **روح المعاني**، ج22، ص194–195، ونقل عن ابن عباس تفسير الكتاب الذي جعل في ذرية نوح وإبراهيم في آية سورة الحديد: 26 بالخط بالقلم (انظر: ابن حيان، **البحر المحيط**، ج8، ص227، **تفسير البيضاوي**، ج5، ص304) كما يرى الرازي في اقتران الكتاب والحكم والنبوة تفسير الكتاب بأنه فهم الكتاب والعلم به وحقائقه باعتبار أن الأنبياء لم ينزل الله على كل واحد منهم كتاباً (انظر: الرازي، **التفسير**، ج13، ص68).

[2] ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ البقرة: 213، ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ آل عمران: 184، ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ فاطر: 25، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ الشورى: 17، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ الحديد: 25.

[3] ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ المائدة: 48.

[4] ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ البقرة: 177، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ البقرة: 285 (في بعض القراءات كتابه بدل كتبه، انظر: الرازي، **التفسير**، ج7، ص143، واعتبر الأصفهاني الإفراد أبلغ مقارنة بالآيات التي ذكرها القرآن من نزول الكتاب على الرسول، ولأن الكتاب للجنس ولأنه ليس لكل نبي كتاب بل بعضهم اتبع كتاب من سبقه (انظر: الأصفهاني، تفسير سورة البقرة: 567)، ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ الشورى: 15.

➢ الكتاب الذي أورثه الله ذرية إبراهيم والأنبياء ومن اصطفاهم الله.[1]

هذه هي السياقات التي أشكل فيها معنى الكتاب في التفاسير، وبعرضها تكتمل الصورة حول ما ورد في القرآن عن الكتاب. لكن مفهوم الكتاب ما يزال متفرقاً حسب التصنيف الذي اعتمدناه، لكن ما استجمعناه من خصائص كل زمرة يمكن أن تساعدنا في بناء مفهوم كلي للكتاب في القرآن، وبه تكون الإجابة عن السؤال الإشكالي حول مفهوم الكتاب.

عود على بدء: الكتاب في القرآن

بدأنا في بحثنا عن مفهوم الكتاب بالمعنى اللغوي فوجدنا أن كل ما ذكر في الكتاب قريبٌ بعضه من بعض، والمعنى المشترك هو الجمع بين شيئين أو أكثر؛ فالكتاب هو المجموع من الحروف والكلمات الدالة على مقصود كاتبها، ويقتضي ذلك معنى لازماً له وهو الخط الذي تُجمع من خلاله الحروفُ والكلمات. وبالتالي فالكتاب يشتمل على معنيين هما **الجمع مع الانتظام**، فتجمع الحروف وتنتظم بالخط والسطر، وهذا الجمع والانتظام يرتبط ببعد مادي هو الحامل للخط، مما جعل الكتابة على سجل توثيقاً للقول الشفهي، ومن هذا البعد لوظيفة الكتابة أُطلق الكتاب على معان أخرى على سبيل المجاز، واستخدم القرآن لفظَ الكتاب بهذه المعاني – لا سيما اشتقاق الفعل– كالفرض والتوثيق والأجل إلخ، إذ الكتاب هو المحدد لهذه المعاني والحامل لها.

ولعل هذا المعنى هو الرابط بين لفظ الكتاب وما يحصى على الإنسان من أعمال وسلوك يحاسب عليه، أو ما أسميناه كتاب الأعمال. وبما أن الكتاب سجل توثق به الأمور وتحصى، فقد قرب الله عدالته من تصور الإنسان فجعل أعماله محصاة عليه. وهذا

---

[1] ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ النساء: 54، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ العنكبوت: 27، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فاطر: 32، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الحديد: 26.

الإحصاء سيعلمه الإنسان يوم القيامة في كتاب يلقاه منشوراً، فيكون الكتاب حسيباً عليه، فالله ليس بحاجة لدليل يحاجّ به الإنسان يوم الحساب، لكن الله ألزم نفسه بقوانين البشر في محاسبتهم فبين أن أعمال الإنسان موثقة في سجل يُلقّاه الإنسان ويقرأه. وقد حددت تلك الآيات صفات مادية لهذا الكتاب تدل على ثبات وموثوقية ما فيه، وبالتالي فبوسعنا اعتبار كتاب الأعمال المذكور في القرآن ملحقاً بالاستخدامات اللغوية القرآنية للفظ الكتاب، مع فارق بين الكتاب المادي في الدنيا والرمزي في الآخرة.

فالجمع والانتظام بوصفه معناً مركزياً لمفردة الكتاب هو ما سنستصحبه معنا في متابعة البحث عن مفهوم الكتاب في استخداماته القرآنية غير اللغوية. ثمة معنيان مركزيان للكتاب في القرآن، هما: الكتاب المنزل على الرسل، وكتاب الله المشتمل على علمه، وثمة ربط قرآني بينهما، وسنلخص أهم ما لاحظناه فيما يخص كلاً منهما وما يمكن أن نستنتج منه:

1. الكتاب المنزل على الرسل

حديث القرآن عن الكتاب بما هو كتاب سماوي يركز على صفات تدل على بعدين أساسيين: **الأول كونه إلهياً** وقد عبر عن ذلك ببيان مصدره (فهو منزل من الله وموحى منه ومؤتى إلى رسله) وبيان صفات مضمونه من حيث كونه لا ريب فيه وهدى ورحمة للناس، ومبيناً وحكيماً إلخ، وهي صفات تكررت إجمالاً وتفصيلاً في مختلف الآيات. أما البعد **الثاني** الذي دلت عليه صفات الكتاب الإلهي المنزل فهو **كونه ينسجم مع مدركات الإنسان**، فهو يُقْرأ ويُتْلَى ويُتَدَبَّر ويُسْتَرْشَد به. هذان البعدان يحددان جانباً من مفهوم الكتاب الذي يميزه عن الكتاب بالمعنى اللغوي.

هذا وبتتبع سياقات الحديث عن الكتاب الإلهي المنزل يتبين أن المقصود به أحدُ الكتب الثلاثة المنزلة على موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وقد خص كل من تلك الكتب بحديث خاص عنها في سياقات ذكر أسمائها (التوراة والإنجيل والقرآن).

لكن التوراة والإنجيل تكرر الحديث عنهما باعتبارهما يشملان مرحلة ممتدة تشمل أنبياء بني إسرائيل وأتباعهم الذين عبر عنهم بأهل الكتاب أو الذين أوتوا الكتاب. وقد مثل كتابهم مرحلة من مراحل تنزل الكتاب السماوي الذي ورثوه وتخلوا عنه وحرفوه، إلى أن جاء القرآن في عالم الأميين الذين لم يسبق لديهم كتاب ليكون طوراً جديداً من أطوار الكتاب السماوي[1] يصحح الكتب السابقة ويؤسس لمرحلة جديدة، سواء على مستوى ختم النبوة أو على مستوى مفهوم الكتاب.

فطُول عهد الناس بالتوراة والإنجيل وتنزلهما في ألواح وصحف جعل منهما نموذج الكتاب السماوي، مما جعل المشركين يرفضون القرآن لعدم تشابهه مع الكتب السابقة فطلبوا أن يكون الكتاب مادياً يلمسونه بأيديهم، لكن لم يجب طلبهم لطبيعته العنادية ولكون الكتاب الإلهي في صيغته القرآنية يختلف عن الصيغ السابقة. لذلك جاءت العديد من سور القرآن تخاطب المشركين، وفي افتتاحيتها أن الكتاب هو هذا الذي تقرؤونه وتتلونه وتسمعونه،[2] فعبر عن بعض القرآن بالكتاب باعتبار ما يتنزل منه ويتتابع منجماً إلى أن يكتمل، وكان نزوله وحياً ويتلقاه الناس شفاهاً من غير صحف أو خط (جاءت كتابة القرآن لاحقاً لوصفه بالكتاب، وجمعه لاحقاً لاكتمال نزوله). ومع ذلك سمي كتاباً على الرغم من أن الخط شرط لغوي لازم لوصف الكتاب والكتابة، وهذا يدل على تحول قرآني في مفهوم الكتاب السماوي السائد في تصور العرب،[3] ووصف

---

[1] انظر: مرسي، سيد أحمد محسب، **مقولات أهل الكتاب والفكر القرآني** (بيروت: المكتبة الثقافية، ط1، 1988)، ص85.

[2] انظر حول مفتتحات السور وارتباطها بالكتاب وصفاته: منير، وليد، **النص القرآني من الجملة إلى العالم** (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1997)، ص79 وما بعدها.

[3] وهذا يبطل ربط عدد من الباحثين بين القرآن ككتاب وتحول العرب من الشفاهية إلى الكتابية في الفكر والثقافة، فإن مفهوم الكتاب القرآني بمعزل عن مفهوم الكتابة، ولئن كان للقرآن أثر – ليس موضع جدل – في تطور الكتابة عند العرب، فذلك لا يعود –فيما نرى– إلى كونه كتاباً، و إنما إلى أثره الحضاري الشامل وحثه على العلم، ثم إن الكتابة كانت معهودة عند العرب ومنتشرة (انظر القول بالعلاقة بين مفهوم الكتاب والتحول إلى الكتابية في الثقافة: أبو زيد، نصر حامد، **مفهوم النص** (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط4، 1998)، ص55،=

القرآن بالكتاب فضلاً عن كونه استمرارية وتطوراً في تنزل الكتاب الإلهي فيه ربط بين ما أنزل على الرسول الخاتم ومن سبقه من الرسل.[1]

لكن القرآن اشتمل على آيات عديدة تحدثت عن الكتاب المنزل من غير تحديد أو إشارة إلى كتاب بعينه، وقد فسرت كما رأينا على أنها جنس الكتاب، لكن بعض السياقات كان هذا التفسير فيها محرجاً لاقترانه بأسماء الكتب المنزلة. لذلك تم اللجوء إلى تفسير الكتاب بالكتابة والخط كما أشرنا، لكن هذا التأويل يعود على تفسير السياقات الأخرى بإشكال حول معناها باعتبار تشابه السياق والتعبير.

وبما أن الصيغ المنزلة من الكتاب الإلهي على الرسل ذات مصدر واحد ومشتركة في قسم كبير من المضمون، فبوسعنا اعتبار هذا **القدر المشترك بين مجموعها كتاباً واحداً أنزل على جميع الرسل**،[2] ونفسر به الكتاب الذي ذكرت الآيات أنه أنزل على جميع النبيين، فهو كتاب يتضمن القضايا المشتركة بين جميع الرسالات. وهذا لا يعني انفصاله عن الكتب المنزلة المذكورة، فهو جزء منها وأنزل على مجموع الرسل كما أشارت الآيات وإن لم تذكر له اسماً أو يرتبط كل رسول

=أركون، محمد، **القرآن: من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني**، تحقيق هاشم الصالح (بيروت: دار الطليعة، ط1، 2001)، ص81، طلبة، منى، قراءة القرآن بين الوعي الشفاهي والكتابي، بحث منشور ضمن كتاب: **النزعة الإنسانية في الفكر العربي/دراسات في النزعة الإنسانية في الفكر الوسيط**، تحرير عاطف أحمد (القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، د.ت)، ص54، ويرى ابن عاشور في تسمية القرآن كتاباً إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه (انظر: ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج1، ص221).

[1] انظر: قراعة، سنية، **الرسالات الكبرى** (القاهرة: مكتب الصحافة الدولي، 1966)، ص749.

[2] أشارت إلى هذا المعنى سراب الحافظ (الحافظ، سراب، **الشرائع السماوية** (دمشق: المنار، ط1، 1997)، ص24 وما بعدها)، لكنها خصت الكتاب هنا بالنبيين مفرقة بين كتاب النبوة والرسالة ومتأثرة في ذلك بمحمد شحرور، لكن ما ذكرناه أعلاه بمعزل عن هذا التصنيف والتفريق الذي تنفيه الآيات صراحة إذ لا تفرق بين كتاب نبوة وكتاب رسالة، كما أن اشتراك الأنبياء في وجود كتاب ترتبط به دعوتهم وكما يطرحه القرآن هو بمعزل عن الكتاب الديني المعهود في الأديان القديمة في الشرق الأوسط القديم على أنه أحد الرموز للمخيال الديني المشترك، وهو المعنى الذي فسر به بعض المستشرقين ومن نحا نحوهم مفهوم الكتاب بالقرآن (محمد أركون، م.س: 19).

به مفرداً، وهو نفس ما أشار إليه بعض المفسرين عند تفسير أم الكتاب التي هي الآيات المحكمات على أنها أم كل الكتب التي أنزلت. فيكون **الكتاب الواحد الذي أنزل على جميع الرسل هو القدر المشترك بين جميع الكتب المنزلة المعلومة والذي صدقت بعضها بعضا به، وهو الذي سمي في القرآن بأم الكتاب أو الآيات المحكمات، وبه يفسر الكتاب الذي عُلِّمه عيسى على وجه العموم**، ثم علم التوراة والإنجيل على وجه الخصوص، و**كذلك الآيات التي فسر بها الكتاب بمعنى جنس الكتاب المنزل**، كالذي صدق به الرسل والذي أنزل على جميعهم، وهو الكتاب الذي جاء القرآن تفصيلاً له.

وبهذا نخلص حول الكتاب الإلهي المنزل على الرسل إلى معنيين:

- الكتاب المشترك الذي أنزل على جميع الرسل والذي يمثل التعاليم والقيم المشتركة التي جاء بها الرسل ولا يشتمل على خصوصيات تتعلق بقوم دون غيرهم فهو لجميع البشر.
- الكتاب المتجلي بصيغ معينة والذي تمثل بصيغة التوراة والإنجيل والقرآن، وهي كتب تشتمل على الكتاب الأول، لكنها تزيد عليه في تعاليم إلهية تدرجت وتطورت مع بني إسرائيل عبر التوراة ثم الإنجيل ليأتي القرآن ويختم الكتاب الإلهي المنزل بصيغته النهائية التي تحتوي على ما سبقها تصدقه وتهيمن عليه.

وفي كلا البعدين للكتاب بما هو حامل لرسالة الله إلى الإنسان تتجلى معاني الخصوصية والتكامل في دعوة الرسل كما يعرضها القرآن، فيتجلى من خلال مفهوم الكتاب الخيط المشترك بين الرسالات وتطورها الإصلاحي لما حرف به أتباع الرسل صيغة الكتاب المتداولة بين أيديهم.

هذا ما استخلصناه حول الكتاب المنزل، أما الكتاب الذي اختص الله به فنقف عنده في الصفحات الآتية:

2. كتاب الله/علمه المحيط

أول ما يستوقف المتأمل في الآيات المصنفة تحت هذه الزمرة من استعمالات لفظ الكتاب في القرآن هو طابعه الشامل والمحيط الذي لم يفرط فيه من شيء، وهي خاصية مهمة في معرفة معناه، وفي التعبير عن نفس المعنى بأم الكتاب نلحظ خاصية الثبات والاستقرار، كما نلحظ في الآيات الأخرى ارتباطَ الكتاب بما يجري في الكون من حركة وتغيرات على جميع الأصعدة مع إشارة إلى قدم هذا الكتاب وأسبقيته على ما يلحظه الإنسان من تغيرات، فهو كتاب قائم منذ خلق الله السماوات والأرض.

ومن الآيات التي حيرت المفسرين وفسر لفظ الكتاب فيها بهذا المعنى تلك التي وردت في أول سورة الطور ووصف فيها الكتابُ بأنه مسطور، وقد ذكر ضمن الحديث عن الكون ومخلوقات الله من جبال وبحار وأرض معمورة وغيرها، كما أشارت آيات أخرى إلى كون كتاب الله المترل/القرآن موجودٌ في هذا الكتاب الشامل الذي سمي بكتاب مكنون أو أم الكتاب، وفسر هذا الكتاب باللوح المحفوظ كما أشرنا.

كل هذه المعاني تدعو للتساؤل عن العلاقة التي تربط بين مختلف هذه الخصائص ومعنى الكتاب. إن القول بأن هذا الكتاب بما هو اللوح المحفوظ عبارةٌ عن كتاب مادي ذي خاصية إلهية، وبالتالي هو من قبيل ما يعرف بالآيات المتشابهات، وبالتالي علينا التسليم به مجرد تسليم سيثير من الإشكالات أكثر مما يحل. ففضلاً عن إشكالية المنهج في التعامل مع هذه الآيات التي تعطل تدبر القرآن، وتحيل المعاني إلى ألغاز يسلم بها المؤمن من غير فهم، فإن سياقات الكتاب في هذه الآيات تنبه الإنسان إلى رابط بين مخلوقات الله كلها، وتدعوه إلى تدبره وتأمله والنظر فيه، هذا الرابط هو ما عبرت عنه الآيات بالكتاب أو أم الكتاب وما وصف به من صفات، فكيف يمكن الربط بين هذا المعنى وتعبير الكتاب؟

لقد استحضرنا من معاني لفظ الكتاب الجمع والانتظام، جمع الأحرف

والكلمات المتناثرة وانتظامها عبر السطر والخط لتشكل معاً وحدة متكاملة من جزئيات متراكبة، هذا المعنى هو ما نجده في السياقات التي ورد فيها لفظ الكتاب، فمخلوقات الله الجزئية والمتنوعة والمتفرقة تجتمع كلها معاً بقانون ونظام يتشكل بجمعها هذا الكون الذي نراه والذي يسير وفق سنن ثابتة لا تتغير، فحركة الكون وتغيراتها (المحو والإثبات) ترتبط بنظام محكم وقدر إلهي ثابت.

هذا التقابل بين خاصية الجمع والنظام في معنى الكتاب بشكل عام وبين اجتماع مخلوقات الله في نظام يشكل الكون يعطينا المفتاح لفهم معنى الكتاب في القرآن. وباسترجاعنا ما أشرنا إليه في بحثنا عن الأسماء والكلمات من القول بوجود لغة رمزية في القرآن تخص المفردات ذات البعد الثنائي في علاقتها بالله من جهة والإنسان من جهة، وأنها لها طابع الكلي الذي لا يحيط به الإنسان في الوقت الذي هو قادر على فهم بعضه ومأمور بالبحث عنه والنظر فيه، تبدو مفردة الكتاب هنا -في هذه السياقات بالخصوص- من هذا القبيل، فهي -فيما نرى- **ترمز إلى النظام الوجودي الذي يسير فيه الكون الذي خلقه الله وفق سنن ثابتة**، فعُبِّر عنه بالكتاب لكون مفردات الكون تجتمع كلها لتشكل وحدة كما تجتمع الحروف والكلمات لتشكل كتاباً، فالمخلوقات تجتمع وتنتظم بالقانون الإلهي كما تجتمع الحروف والكلمات بالسطر. لذلك عبر القرآن عن هذا الكتاب بالكتاب المسطور، ووسع في الوصف بأنه في رق منشور. وقد أشار بعض المفسرين إلى كونه منشوراً بين المشرق والمغرب في إشارة إلى شموله الكون كله، كما أشير إلى تسمية هذا الكتاب باللوح المحفوظ في إشارة إلى حفظه من التغيرات، وهو كتاب لم يفرط فيه من شيء في الكون إذ ما من شيء إلا ويخضع لسنن إلهية ونظام كوني.

وبهذا المعنى يمكن فهم كيفية الحفظ الإلهي للقرآن/الكتاب المنزل، فهو محفوظ في كتاب مكنون ولوح محفوظ. وبالمعنى الذي أوضحناه ومن خلال نظام الوجود والكون يتم حفظ القرآن، وذلك بالتوافق والتناظر بين كتاب الكون الإلهي وكتاب

القرآن. فكل منهما يؤكد الآخر ويصدقه، ومن هنا كانت دعوة القرآن إلى النظر في الكون وحثه على العلم؛ لأن ذلك سيؤول إلى القرآن إذ كلاهما إلهي، كما يفسر هذا المعنى للكتاب ما أشارت إليه بعض الآيات من تناظر بين القرآن والكتاب، وكذلك المعنى المزدوج للقراءة عند الأمر الأول بها، أي قراءة الكون وقراءة القرآن ووحدة مآلهما ونتيجتهما، وحدة الدين والعلم والفطرة.

والمعنى الذي أوضحناه سيحل إشكالاً آخر في فهم سر ما قام به الذي عنده علم من الكتاب في قصة ملكة سبأ مع سليمان، فَمَنْ عنده علم من الكتاب استطاع أن يخرق ما اعتاده الناس فيما يتعلق بحركة الأجسام وعلاقتها بالزمان والمكان، فاستطاع بعلم الكتاب أن يحقق أمراً بدا خارقاً وربما ظن سحراً أو فسر على أنه معجزة، لكن القرآن ربط الأمر بقانون محكم يمكن للإنسان أن يطلع على بعضه بالبحث والعلم أو بإلهام إلهي. فالعلم من الكتاب هنا هو فهم قانون إلهي، واكتشاف سر في نظام الأشياء يمكن من خلاله تغيير ما ألف من حركتها. وهذا ما يكتشفه العلم يوماً بعد يوم، ولو قيس الأمر بالمعايير النسبية مع اختلاف الأزمنة لكان ما يوجد اليوم أشبهَ بما نفسر به الخوارق في ماضي الأزمان بينما هي ترتبط بسنن إلهية علمها مَنْ قامت على يديه، وهي في كلا الحالتين ترجع إلى الله وقدرته وإحكام نظامه.

وبهذا نكون قد أجملنا مفهوم الكتاب في القرآن (بمعناه غير اللغوي) ضمن محورين متكاملين:

- الكتاب الإلهي المنزل على الرسل، وقد تحدث القرآن في هذا الجانب عن كتاب مشترك بينهم نزل على جميعهم وهو واحد بينهم لم يختلف لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالأقوام، ويمثل العنصر المشترك بين جميع الرسالات، كما تحدث القرآن عن ثلاث صيغ منزلة من الكتاب الإلهي تتضمن الكتاب المشترك بين الرسل وتزيد عليه، وهي التوراة وقد حكم بها غير نبي ثم الإنجيل جاء يكمل التوراة ويصحح ما انحرف به أتباعها، لكن التحريف لحق الإنجيل

أيضاً فجاء القرآن يختم الكتاب السماوي يصدقه ويهيمن عليه ويعود بأتباع الأنبياء إلى الكتاب الواحد المشترك بينهم.

- الكتاب الإلهي المحيط بالكون، وقد سمي بأم الكتاب واللوح المحفوظ، ودلالة هذا الكتاب رمزية تحيل على النظام الوجودي والسنن الإلهية التي تحكم الكون وتسيره، وهذا الكتاب يشتمل على الكتاب المنزل ويحفظه ويصدقه، وذلك من خلال اكتشاف الإنسان له بالعلم والبحث والتأمل والنظر في الكون.[1]

خاتمة

بهذا التوضيح واستصحاباً لما توصلنا إليه في بحث سابق عن الأسماء والكلمات، تتوضح لنا الصلة بين الكلمات والكتاب، فكلمات الله التكوينية تجتمع لتكون كتاب الله الكوني، وكلماته الشرعية يشكل مجموعها كتاب الله المنزل، ويتم قراءة الكلمات والكتاب بنوعيهما الكوني والشرعي من خلال الأسماء، فتكون تلك المفردات القرآنية هي مفاتيح العلاقة بين الإنسان والله والكون، تلك العلاقة التواصلية المبنية على أسس تنطلق من زاوية محورها الإنسان ينطلق من خلالها إلى آفاقه الكونية والشرعية من خلال ارتباطه الوثيق بالله مكوّن الأشياء والمتجلي على خلقه ومخلوقاته بما أحكمه من سنن يسير عليها الكون. ومن خلال التعمق في درس المفاهيم القرآنية يمكن اكتشاف معالم وتفصيلات هذه العلاقة بين الإنسان والعالم والأنظمة التي تحكمها، وبالتالي اكتشاف وجه أدق من إحكام النظم القرآني والنظام المفاهيمي الذي يشتمل عليه ويجيب عن مساءلات الإنسان حول النص وآفاقه في مسيرة الإنسان في هذا الكون.

---

[1] وجدنا من السابقين من فرق بين نوعين من الكتاب، الكتاب الكوني لكنه قصد به التكويني بمعنى الكتاب الذي قدرت فيه الأمور، والكتاب الشرعي الديني وهو الذي كتبت فيه التكاليف والأحكام (انظر: الحنفي، ابن أبي العز، **شرح العقيدة الطحاوية** (بيروت: المكتب الإسلامي، ط4، 1391هـ)، ص506).